تقرير

خليل حرب
Khalilharb66@gmail.com

قنبلتان هندوسيّة وإسلاميّة "نوويّتهما" للردع أم للحرب؟

صحيح ان اشتعال التوتر بين الهند وباكستان لا يبعث على الاطمئنان، بالنظر الى ان "الجارتين اللدودتين" تختزنان ما يكفي من الرؤوس النووية القادرة على التسبب بفناء ملايين البشر، لكن العديد من التقديرات والوقائع، تظهر ان لا مصلحة لهما بالسير نحو الابادة النووية، لكن ذلك قد يكون تمنيات فقط

عندما تتفاقم النزاعات بين الهند وباكستان، فتش على بريطانيا. ما من قدرة على فهم النزاع، من دون ادراك جذور الارث الاستعماري البريطاني للهند والذي استمر نحو 200 سنة، ولم يساهم، الى جانب نهب خيرات سكان شبه القارة الهندية باسم الشراكة الاقتصادية والعلاقات التجارية، سوى في الاخلال بالبنى الدينية والعرقية والاجتماعية القائمة في هذه البلاد منذ الاف السنين.

يقال ذلك من دون تجاهل تعقيدات المجتمع الهندي وتنوعه العرقي وتركيبته الشائكة، الا ان ما سمي قانون الاستقلال الهندي الذي اقره البرلمان البريطاني، خلف جراحا لم يكن في الامكان ان تلتئم منذ نحو 70 سنة، حيث اقر تقسيم شبه القارة الهندية فحدثت اكبر موجة نزوح في تاريخها لملايين الناس، حيث توجهت قوافل المسلمين في اتجاه الاراضي التي اصبحت تسمى باكستان، وقوافل الهندوس والسيخ وغيرهم في اتجاه الاراضي التي اصبحت الهند، وتخلل ذلك عمليات قتل وانتهاكات واسعة.

لكن القنابل الموقوتة التي خلفها المستعمرون البريطانيون لم تقتصر على ذلك، لأن قرار التقسيم تضمن انضمام الولايات ذات الغالبية المسلمة الى باكستان، والولايات ذات الغالبية الهندوسية الى الهند، على ان يكون ذلك وفقا لرغبة السكان، وهي معادلة خلقت تعقيدات كثيرة، لكن هناك 3 نقاط اساسية من بينها كشمير (اضافة الى حيدر اباد وجوناغاد). وبينما فرضت الهند سطوتها العسكرية على حيدر اباد وجوناغاد، وضمتهما فعليا الى سيادتها برغم وجود اقلية مسلمة، الا كشمير لم يحسم وضعها لأن حاكمها الهندوسي، قرر الانضمام الى الهند من دون الاخذ في الاعتبار مطالب المسلمين الذين يشكلون الغالبية.

الان، تتقاسم الهند وباكستان السيطرة على كشمير التي تبلغ مساحتها 242 الف كيلومتر مربع، وتقطنها غالبية مسلمة تمثل نحو 90% الى جانب اقليات صغيرة من الهندوس والبوذيين، في حين تسيطر الصين على جزء آخر من الاقليم.

لهذا، ولأسباب عدة، فان وقوع هجوم ارهابي كالذي جرى في الشطر الهندي، من جانب جماعة مسلحة يعتقد انها تنظيم "لشكر الطيبة" الذي تقول نيودلهي ان اسلام اباد، تدعمه، ومقتل 26 شخصا من السياح الهنود، لا يكون حدثا امنيا محليا عاديا، اذ سرعان ما اشعل مواجهة مسلحة بين الجارين اللدودين، على الحدود، ومن خلال الغارات الجوية هجمات الصواريخ المتبادلة، واثار مخاوف تتعدى الحدود الاقليمية وشراراتها عالمية، وخصوصا في الصين وروسيا والولايات المتحدة وايران ودول الخليج الى جانب كل دول جنوب شرق اسيا، الى ان اعلن الرئيس الاميركي دونالد ترامب في 10 ايار الماضي، ان "الهند وباكستان اتفقتا على وقف طلاق نار شامل وفوري".

لهذه المخاوف اسبابها البديهية، ذلك ان "الجارين اللدودين" سبق لهما الانخراط في مواجهة عسكرية مباشرة حول كشمير، مرات عدة، في الاعوام 1947، و1965، و1999، ناهيك بالاشتباكات التي تجري بشكل معتاد بينهما بالاسلحة الخفيفة والمتوسطة في المناطق الجبلية، خصوصا في منطقة سياتشين الوعرة التي شهدت ايضا مواجهة عسكرية كبيرة في العام 2003، وهو النزاع العسكري الذي وصف بأنه جرى في اعلى ساحة معركة على وجه الارض على ارتفاع 6 الاف متر.

الخشية تتحقق، بعدما استدرجت حادثة الهجوم الارهابي، اشتباكات اوسع بين الهند وباكستان، بشن غارات وهجمات متبادلة، الخوف الحقيقي منها احتمال تدحرجها الى حرب شاملة جديدة، تضع هذين البلدين، المتخمين بالسلاح والقنابل النووية والكراهية المتبادلة المتأثرة بالتاريخ ومآسيه، في مواجهة كبرى قد يكون من الصعب احتواؤها.

مع ذلك، فان هناك تقديرات وآمال ايضا، بأن البلدين، ادراكا منهما لكل عناصر التفجير الخطيرة التي يمتلكانها، وتحيط بهما، يميلان عادة الى تغليب خيار عمليات الانتقام المدروسة والمنضبطة، اذ لا مصلحة لنيودلهي التي للمفارقة تعتبر ان التهديد الاستراتيجي الحقيقي ضدها يأتي من جارتها الشرقية، اي الصين، وليس من جارتها الغربية باكستان، بالتصعيد المتفلت. اما اسلام اباد، فهي الاخرى، وفق التقديرات ذاتها، لا مصلحة لها بنزاع عسكري متفلت مع الهند التي تبدو اكثر اقتدارا عسكريا واقتصاديا وبشريا، فيما يعاني الباكستانيون من اوضاع اقتصادية متردية.

ويقول مراقبون ان رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي، وهو من حزب "بهاراتيا جاناتا" المعروف بأفكاره القومية الهندوسية المتشددة، حيث غذى النزعة المتطرفة ضد الاقلية المسلمة في الهند نفسها، واتهم مرارا من خصومه بأنه شجع وان بشكل غير مباشر، اعمال العنف الدينية التي ارتكبها الهندوس، لم يكن في مقدوره ان يظهر "ضعيفا" امام باكستان بعد حادثة الهجوم الارهابي في كشمير، ذلك انه يروج منذ سنوات الى ان حكومته فرضت استقرارا في الشطر الهندي من كشمير. ولهذا، لم يجد مودي ما يمنعه من منح الجيش الهندي "حرية التحرك" للرد.

في المقابل، فان باكستان، على الرغم من ان موقعها في النزاع لا يبدو مؤاتيا، لا يمكنها اظهار خضوعها للسطوة الهندية، وهو ما عبر عنه رئيس الحكومة شهباز شريف بتنديده بـ "الاستفزاز" الهندي، او باعلان وزير الدفاع الباكستاني خواجة محمد آصف تعزيز الانتشار العسكري على الحدود مع الهند، لكنه اكد على ان "على البلدين الامتناع عن استخدام الخيار النووي في حال حدوث صراع مسلح تقليدي". لكن رئيس الاركان الباكستاني الجنرال عاصم منير، لم يجد حرجا في التذكير بأن بلاده خاضت 3 حروب مع الهند حول كشمير، وفي إمكانها خوض 10 حروب أخرى، لكن القنابل النووية لم تخرج من مخابئها.

في مكان ما، تنظر الصين الى تنامي القدرات الهندية بقلق، وهي ترتبط منذ ستينات القرن الماضي بعلاقات سياسية وعسكرية وثيقة مع اسلام اباد، ترقى الى مستوى العلاقات الاستراتيجية، بما يشمل ايضا تسليح الجيش الباكستاني ودعم البرنامج النووي الباكستاني، بموجب اتفاقية تعاون بنهما تعود الى العام 1986. مقابل دعم اسلام اباد لسياسة "الصين الواحدة"، اي الاقرار بسيادتها على تايوان، فان بكين تدعم حق تقرير المصير لشعب كشمير، وهو ما يثير حفيظة الهند بالتأكيد.

مما لا شك فيه، ان باكستان تراهن على المساندة الصينية لها في اي نزاع محتمل مع الهند، ولهذا، فان الولايات المتحدة التي توثقت علاقاتها مع نيودلهي بشكل كبير خلال العقدين الماضيين، بعد فتور وتوتر مرحلة الحرب الباردة، الى درجة ان واشنطن دخلت مع الهند باتفاقية تعاون شاملة في مجال الطاقة النووية منذ العام 2005. وقد تعززت هذه الشراكة من خلال الزيارة التي قام بها الرئيس الاميركي دونالد ترامب خلال ولايته الاولى الى نيودلهي في العام 2020، للتأكيد على التحالف العسكري، خصوصا ان واشنطن تحدد منذ سنوات ان اولوياتها للتهديدات الاستراتيجية تتمثل في الصين الى جانب روسيا، حيث قالت في وثيقة الدليل الاستراتيجي للأمن القومي، ان الصين باتت "المنافس الوحيد المحتمل القادر على الجمع بين قوته الاقتصادية والديبلوماسية والعسكرية والتكنولوجية، لتشكيل تحد مستدام لنظام دولي مستقر ومنفتح". بهذا المعنى، فان ترامب معني مباشرة بتداعيات الشرارة الهندية - الباكستانية، وكيف من الممكن ان تؤثر على التركيز الأمني - العسكري الاميركي في شرق اسيا، وبؤر التوتر المحيطة بالصين، خصوصا ان الرئيس الاميركي يخوض منذ اسابيع حربا تجارية متفاقمة مع بكين التي نشرت وزارة خارجيتها فيديو، باللغتين الانكليزية والصينية يقول ان "الانحناء امام المتنمر اشبه بتجرع السم لإرواء العطش، ويفاقم الازمة. لقد اثبت التاريخ ان الركوع لا يؤدي الا الى مزيد من التنمر، والصين لن تركع".

الجدير بالذكر، ان الولايات المتحدة هي رابع اكبر مصدر للاسلحة للهند بعد روسيا واسرائيل وفرنسا، وتشير التقديرات الى حجم التجارة الدفاعية بينهما تصل الى اكثر من 20 مليار دولار. وستكون الهند وفق هذه المعايير، معنية ايضا برسم سياستها الصينية، بناء على عمق علاقتها مع واشنطن واولوياتها، واستنادا على الرؤية الأميركية - الهندية المشتركة لمنطقة المحيطين الهندي والهادئ.

في هذه الاجواء المتوترة، تصبح صيغة "القنبلة الهندوسية" مقابل "القنبلة الاسلامية"، معادلة محفوفة بمخاطر لا يمكن تصورها في ظل العداء المستحكم بين نيودلهي واسلام اباد. يقدر معهد ستوكهولم ان لدى الهند 160 رأسا نوويا، مقابل 170 لباكستان، لكن لا تتوافر ارقام رسمية. ولا التوتر بين البلدين شبه مستمر، فان اي سوء حسابات او تقدير، اضافة الى تلاصقهما الحدودي، يعزز المخاوف من انفجار مواجهة مدمرة بينهما، حتى وان ادعت كل دولة ان "نوويتها" هي للردع، وليس للحرب.

القوة العسكرية

يحدد موقع "غلوبال فاير باور" المتخصص بالشؤون العسكرية، القوة العسكرية التي تتمتع بها الهند وباكستان، حيث يحتل الجيش الهندي المرتبة الرابعة عالميا بينما يحتل نظيره الباكستاني المرتبة 12 بين اقوى جيوش العالم. وبينما تبلغ ميزانية الدفاع ومعدل الانفاق السنوي للجيش الهندي 75 مليار دولار، فان الميزانية العسكرية لباكستان تبلغ 7.640 مليارات دولار.

يبلغ عدد افراد الجيش الهندي 1.4 مليون جندي، و1.1 مليون جندي في قوات الاحتياط، مقابل 654 الف جندي باكستاني، اضافة الى 550 الف جندي في قوات الاحتياط.

لدى القوة الجوية الهندية 2229 طائرة حربية، بينها 513 مقاتلة، 130 طائرة هجومية، 270 طائرة شحن عسكري، اضافة الى 351 طائرة تدريب، اضافة الى 899 مروحية عسكرية منها 80 مروحية هجومية، مقابل باكستان التي لديها 1399 طائرة حربية بينها 328 مقاتلة، 90 طائرة هجومية، و373 مروحية عسكرية منها 57 مروحية هجومية.

"الكارثة" نوويا

هناك دراسة نشرتها جامعة راتغرز تستعرض امكان وقوع حرب نووية بين الهند وباكستان، وتتضمن سيناريو استخدام ما يصل الى 250 رأسا نوويا صغيرا ومتوسطا، بقوة تفجيرية تتراوح بين 15 و100 كيلو/طن لكل رأس وتستهدف افتراضيا المدن الكبرى فيهما، مما سيؤدي الى مقتل ما بين 50 الى 125 مليون شخص بشكل فوري. وستؤدي هذه التفجيرات النووية الى حرائق ضخمة في المناطق الحضرية، مما سيتسبب في اطلاق ما يزيد على 5 الى 36 مليون طن من الدخان والسخام (الكربون الاسود) الى الغلاف الجوي العلوي، وستمنع اشعة الشمس من الوصول الى سطح الارض، وينخفض متوسط درجة حرارة سطح الارض بمقدار 1.5 الى 2.5 درجة مئوية خلال السنوات الاولى بعد الحرب، ووصل البرودة الى درجات قياسية. وبحسب السيناريو نفسه، سينخفض معدل هطول الامطار بنسبة قد تصل الى 30%، خاصة في افريقيا وآسيا واميركا الجنوبية، مما سيؤدي الى جفاف طويل، وتدمير مواسم الزراعة وانتشار واسع للمجاعات وتهديد الامن الغذائي.